خطبة صلاة الجمعة 29/ 11/ 2019 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(الهجرة والدعوة)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (45) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (46) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (47) وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: 45 – 48].

روى الإمام البخاري عن عطاء بن يسار رضي الله عنه قال: «لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة. فقال: أجل، إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: ﴿يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا﴾، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا».

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب 21].

أيها الإخوة: هذه هي الخطبة الخامسة في سلسلة "**علمتني السيرة النبوية**"، أعرض لكم فيها مختارات من السيرة العطرة وأقطِف من دروسها ما نحتاجه ليومنا وغدنا؛ لنزداد له صلى الله عليه وسلم محبة، ولنجتهد به اقتداء ولنكثر عليه صلاة، صلوات ربي وسلامه عليه.

كان عنوان الخطبة الأولى: بدء الوحي، والثانية: بدء الدعوة والثالثة: جهاد الدعوة، والرابعة سَفَر الدعوة.

وعنوان خطبة اليوم: **الهجرة والدعوة.**

أيها الإخوة:

أخرج ابن هشام في سيرته: (عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: كان لا يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرة، وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أُذن فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة، أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهاجرة، في ساعة كان لا يأتي فيها. قالت: فلما رآه أبو بكر، قال: ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الساعة إلا لأمر حدث. قالت: فلما دخل، تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخرج عني من عندك، فقال: يا رسول الله، إنما هما ابنتاي، وما ذاك؟ فداك أبي وأمي!

فقال: إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة.

قالت: فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول الله، قال: الصحبة.

قالت: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ.

واجتمع في دار الندوة رجال قريش وتمالؤوا على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ضَرْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَأَتَى جبريلُ عَلَيْهِ السّلَامُ رسولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: لَا تَبِتْ هَذِهِ اللَّيْلَةَ عَلَى فراشِك الَّذِي كنتَ تَبِيتُ عَلَيْهِ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم علياً أن ينام عَلَى فِرَاشِه ويتَسَجَّى بِبُرْده وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأمانته صلى الله عليه وسلم.

وهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صاحبه أبي بكر إلى المدينة وأحكما خطة الهجرة فخرجا ليلاً من باب خلفي لبيت أبي بكر متجهين جنوب مكة مع أن المدينة شمالُها ليتوريا من الناس في غار ثور ثلاثة أيام حتى يهدأ الطلب؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم علم أن قريشاً ستطلبه وتتجه لذلك في طريق المدينة شمالاً، وواعدا دليلاً ماهراً يأتيهما بعد ثلاثة أيام ودفعا إليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما وواعدا عبدَ الله بن أبي بكر ليحمل لهما أخبار مكة في الليل ثم يرجع لمكة قبل طلوع الشمس، وأسماءَ بنتَ أبي بكر لجلب طعامِهما، وعامرَ بن فُهيرة وكان راعياً ليأتيَهما باللبن ويطمسَ بقوائم أغنامه أثر مسير عبد الله بن أبي بكر وأسماء، وكانت عناية الله لهما خير معين ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 40].

ووصل النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبُه المدينة سالمين واستقبله أهلها في يوم لم تشهد المدينةُ المنورةُ مثلَه، روى الإمام أحمد عَنْ أَنَسٍ قَالَ: "لَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ، أَضَاءَ مِنَ الْمَدِينَةِ كُلُّ شَيْءٍ".

أيها الإخوة:

فيما سبق من حديث الهجرة والدعوة دروس وفوائد يحتاجها كل منا، وقد علمتني السيرة النبوية فيها ثلاثة أمور:

أولها: رجل الدعوة يسير طوعاً لدعوته ولا يجد راحته حتى يبلّغ رسالته.

ثانيها: يبذل الداعية الأسباب وكأنها كلُّ شيء، ويتبرأ إلى الله منها وكأنها لا شيء.

ثالثها: أخلاق الدعاة تدل على عظم رسالتهم قبل أقوالهم.

أولا: رجل الدعوة يسير طوعا لدعوته ولا يجد راحته حتى يبلغ رسالته:

أيها الإخوة: (ينشُد الناس سعادتهم فيما تعلّقت به هممهم، فطالب الزعامة ينشَط ويكسَل بمقدار قربه أو بعده من أمله الحبيب. وطالب المال يقضي سحابة نهاره وشطر ليله يتتبّع الأرقام في دفاتره، وطالب الشهوة يجري وراء النّساء، ويجد فيهن نهمته. بينما تجد أصحاب الرسالات رهناء ما تحمّلوا من أمانات ضخمة، فمغانمهم ومغارمهم وحلّهم وترحالهم، ترجع كلّها إلى رسالتهم). [فقه السيرة للغزالي].

وصاحب الرسالة العظمى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام هاجروا وتحملوا ما تحملوا حفاظاً على دعوتهم ونشراً لرسالتهم، يريدون نشر الخير في الأرض وإخراجَ الناس من الظلمات إلى النور.

تقول كتب السير: (وكان ممن هاجر سيدنا أبو سلمة بن عبد الأسد وكان خرج بزوجه أم سلمة، ومعهما ابنهما سلمة، فخرج يقود بهما بعيره، فلما رأته رجال من بني المغيرة – وهم عشيرة زوجته أم سلمة – قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك قد غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه، علام نتركك تسير بها في البلاد؟ فنزعوا خطام البعير من يده، وانتزعوها منه، فغضب عند ذلك بنو عبد الأسد –رهط أبي سلمة– فقالوا: والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا، فتجاذبوا «سلمة» فيما بينهم حتى خلعت يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وأما أم سلمة فقد حبسها بنو المغيرة عندهم، وفرّقوا بينها وبين زوجها وولدها، ومع كل هذا انطلق أبو سلمة إلى الله مهاجراً، ولم يلوِ على أهل، ولا ولد، ولا مال حتى وصل إلى قباء فأقام بها حتى وصلت إليه زوجه بعد عام.

أما أم سلمة فكانت تخرج كل غداة فتجلس في الأبطح، فما تزال تبكي حتى تمسي، سنة أو قريباً منها، حتى مر بها رجل من بني عمها، فرأى ما بها، وحزنها على فراق زوجها، فرق لها ورحمها، وذهب لأهلها وقال لهم: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها؟! فقالوا لها: الحقي بزوجك إن شئت، وحينئذ ردّ بنو عبد الأسد إليها ابنها سلمة، تقول أم سلمة: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة». [السيرة النبوية لمحمد أبو شهبة].

وبإمكانكم بعد هذه الحادثة الواحدة من عشرات مثلها أن تتصوروا البذل الذي بذله النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام للتمسك بدينهم والحفاظ عليه ونشره. فرجل الدعوة يسير طوعاً لدعوته ولا يجد راحته حتى يبلّغ رسالته.

ثانياً: يبذل الداعية الأسباب وكأنها كلُّ شيء، ويتبرأ إلى الله منها وكأنها لاشيء:

فقد رأيتم كيف أعدّ النبي صلى الله عليه وسلم لهجرته ما أعد من زاد وراحلة وصاحب ودليل وجامعِ أخبار وتعمية للعدو، مع أن الله تعالى عصمه من الناس وحماه وكفله وأخبره أنه في كنفه وحمايته، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم أعدَّ من الأسباب كلَّ شيء ممكن وبقي قلبه الشريف متعلقاً بربه (إن الله معنا)، وهذه هي حقيقة التوكل.

قال أبو سعيد الخراز: التوكل اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب، يريد: تتحرك جوارح العبد في الأسباب فلا تسكن، ويسكن قلبه لتقدير ربه فلا يضطرب.

وأجمع القوم على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها وإلا فهو بطالة وليس بتوكل.

فالعبد آخذٌ بأسباب السَّلامة والسَّعادة بجوارحه، منخلعٌ عن الحول والقوَّة بجنانه، «اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ» [الترمذي].

فمن أراد النجاة من الأهوال فليبذل وسعه بأركانه وليتوكل على الله بجنانه، ومن أراد النجاح في الدعوة فليسعَ للنجاح سعيه وليوقن أن نجاحه بيد ربه، ومن طلب الرزق في وقت العسر فليعمل بجوارحه ما يستطيع وليتوجه بقلبه للرزاق السميع، ومن سأل الشفاء فليتناول الدواء وليجأر إلى الله بالدعاء ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: 122].

ثالثاً: أخلاق الدعاة تدل على عظم رسالتهم قبل أقوالهم:

فقد بلغكم -أيها الإخوة- أنّ قريشاً مع عدائها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومع كيدها له ولأصحابه كانت تضع أماناتها عنده لعلمها أنه الصادق الأمين، ويقف المرء مدهوشاً عندما يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع رؤيته لصناديد قريش يقفون على بابه يريدون قتله وتفريقَ دمه في القبائل لم يرض إلا أن يترك وراءه من يرد الأمانة إلى أصحابها ويعيد الودائع إلى أهلها...!.

ويعلق أحد الباحثين يقول: (ورب قائل يقول: إن وراء الهجرة هدفاً أكبر بكثير من التمسك بجزئيات أخلاقية قد يسمح الظرف الخطير بتجاوزها، لكن منطق رسول الإسلام شيء آخر... ما الفرق بين الإسلام وبين المبادىء الأخرى إذا كان هو متأسياً بها في تخليه عن أخلاقياته في ساعات المحنة والخطر؟! وماذا سيقول المشركون لو غادر (الأمين) مكة دون أن يردّ إليهم أمانتهم؟ ما أسرع ما يمكن أن يتهموه، حيث يأكلهم الغيظ: الأمين تحول إلى سارق، وضاعت الأمانة... وحاشاه!)

فمن أراد أن يحمل الدعوة فلتخبر أخلاقه الناس عن عظيم دعوته وصدق رسالته قبل أقواله.

وبعد أيها الإخوة:

هذا شيء من فوائد حديث الهجرة والدعوة، علمتنا السيرة النبوية من خلاله أن رجل الدعوة يسير طوعا لدعوته ولا يجد راحته حتى يبلّغ رسالته.

وعلمتنا السيرة النبوية أن يبذل الداعية الأسباب وكأنها كلُّ شيء، ويتبرأ إلى الله منها وكأنها لا شيء.

وعلمتنا السيرة النبوية أن أخلاق الدعاة تدل على عظم رسالتهم قبل أقوالهم، فمن أراد أن يحمل الدعوة فلتخبر أخلاقه الناس عن عظيم دعوته وصدق رسالته قبل أقواله.

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56].

والحمد لله رب العالمين